

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وجدانية الله . والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصوراً ، وخلقاً ، وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً - إلا عليها وبها ..

إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه .. « يتكامل » ويتناسق فيه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية .. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة - في التصور الاسلامي - ليست هي الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة - في التصور الاسلامي - تمتد طويلاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة .. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة - في التصور الاسلامي - تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المحدودة المشهودة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ، وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الانساني في صور لا يعلمها إلا الله وتمتد الحياة في حقيقتها؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى .. في الجنة وفي النار سواء .. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا ولا تساوي الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة !

والشخصية الانسانية - في التصور الاسلامي - يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات ، ويتسع تصورهما للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الانساني ، ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات .. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضائل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الانساني ، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !.

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم .. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ؛ وتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه : تصوراً واعتقاداً وخلقاً وسلوكاً وشرعية ونظاماً ..

إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض يفوته ، ولاجزاء عما يفعله وما يفعل به .. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس ! إن اتساع التصور وعمقه ينشئ سعة في النفس وكبراً الاهتمامات ورفعته في المشاعر ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبدل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ، وصلاح خلق الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الاسلامي - وصلت الأوضاع والأنظمة، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكونهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة ! فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ، وإلى اهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها واصلاحها ، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة - كما هي في التصورات الكنسية - وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم . فالدنيا - في التصور الاسلامي - هي مزرعة الآخرة والجهد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ودفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى .

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو

تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران .. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبين ، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا — مع ادعائهم الإسلام — فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد ترعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ؛ وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلباً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان . إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطبيعتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لتوقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة .. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى . وكل جزئية في النظام الاسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتخرج وتقوى ، وما تنشئه في النشاط الانساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الاسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة .

وكان العرب في جاهليتهم — وبسبب من هذه الجاهلية — لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر ، ولا في امتدادات الذات الانسانية إلى آماذ وأفاق وأعماق غير

هذه الآماد المحسوسة . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته . شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . « العلمية » كما يصر أهلها على تسميتها ! « وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

وكان الله - سبحانه - يعلم أن الإعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلتصق الإنسان بالأرض ، وتلتصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة .. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! .. وهذه الأنظمة والأوضاع التي تنشأ في الأرض منظوراً إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان .. إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضاً ، وتصارع الطبقات بعضها بعضاً ، وتصارع الأجناس بعضها بعضاً . وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً عن انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهده اليوم في عالم « الحضارة » .. في كل مكان .. كان الله - سبحانه - يعلم هذا كله ، ويعلم أن الأمة التي قدّر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة .. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ...

ولهذا كانت ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولاً لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشرعية ونظاماً .

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة

ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة ..
كذلك هي ضرورة لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ، ولفسحة
بجمال الحركة حتى لا تبسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي
في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة
والتضحيات الأليمة .. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة
الكبيرة ..

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس «الإنسان»
وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك «الحيوان» ! وما يصلح إدراك
الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !.
لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله .. ثم بلغت
صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح .. حتى بات
عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه
فعلاً .. وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيادة الراشدة التي وعها
التاريخ الإنساني !.

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في القرآن .. الإيقاعات
التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ، فتفتتح نوافذها وتستيقظ أجهزتها
الإستقبال فيها ، وتتحرك ونحيا ، وتتأهب للتلقي والإستجابة .. ذلك كله فضلاً على
أنها تمثل الحقيقة .

إنها إيقاعات عنيفة عميقة . إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية
عالية . وصيحات . صيحات بَسْئُوم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكاري
مخمورين ثقل حسهم الحمار ! أو بِلَاهِينَ في سامر واقصين في ضجة وتصدية ومكاء !
تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من هذا القرآن بنذير واحد .
اصموا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا تدبروا .. إن هناك إلهاً . وإن

هنالك تقديراً . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حساباً وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعياً كبيراً .. اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا .. وهكذا مرة أخرى . وثالثة . ورابعة وخامسة .. وعاشرة .. ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائم المخمورين السادرين هزاً عفيفاً ، ويعود الصوت العالي يصبح بهم من جديد ، وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب وفي القرآن تركيز على مشاهد القيامة العنيفة الطامة . الصاخة . القارعة . الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعم وعذاب في صور تفرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في هولها وضخامتها ..

كثيرون هم المسلمون اليوم .. ولكن قليل من يؤمن بالآخرة عن يقين .. قليل من يخشى ذلك اليوم ويعمل له ..

إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك . والاسلام عقيدة متحركة ، لا تطيق السلبية . فهي بمجرد تحققها في عالم الشعور تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل في عالم الواقع . ومنهج الاسلام الواضح في التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون . مع استحياء الدافع الشعوري الأول في كل حركة لتبقى حية متصلة بالنبوع الأصل .

وكثيرون هم الذين يقولون . « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » .. يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها لا يتحقق في سلوكهم فيتولون ناكصين ، يكذبون بالأعمال ما قالوه باللسان : « وما أولئك بالمؤمنين » ..

فالْمُؤْمِنُونَ تصدق أفعالهم أقوالهم ، والإيمان ليس لعبة يتلها بها صاحبها ، ثم يدعها ويمضي إنما هو تكيّف في النفس وانطباع في القلب ، وعمل في الواقع ، ثم لا تملك النفس الرجوع عنه متى استقرت حقيقته في الضمير .

يقول الحسن البصري « هيات هيات ، أهلك الناس الأمانى ، قول بلا عمل ،

ومعرفة بغير صبر ، وإيمان بلا يقين ، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً ، وأسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرّموا ثم استعملوا ، إنّا دين أحدكم لعقّة على لسانه إذا سئل أمّؤمنٍ أنت يوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين .

إن من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وإيماناً في يقين ، وعلماً في حلم ، وحلماً بعلم وكتبساً في رفق ، وتجملاً في فاقة ، وقصدأ في غنى ، وشفقة في نفقة ، ورحمة لجهود ، وعطاء في الحقوق ، وإنصافاً في الاستقامة ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأنم في مساعدة من يحب ، لا يلزم ولا يغمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ، ولا يلعب ، ولا يمشي بالتميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذي عليه . . .

يقول بلال بن سعد : « عباد الرحمن : يُقال لأحدنا أتجب أن تموت ؟ فيقول : لا ، فيقال : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، ويقول سوف أعمل ، فلا يجب أن يموت ولا يجب أن يعمل ، وأحب شيء إليه أن يؤخر عمل الله ، ولا يجب أن يؤخر عنه عرض الدنيا . » ويقول : « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء ، أنتم لم تخلقوا للفناء ، إنّما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ثم إلى الخلود في الجنة أو النار . .

إن صور الآخرة هي لإشعار البشر بهولها وضخامتها وجدّيتها ، وأصالتها في التقدير الإلهي ، إنّها صور لذلك الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . فرُبّ مسرور مغبون يأكل ويشرب ويضحك وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار . فياويلأ له روحاً ، وياويلأ له جسداً .

يقول بلال بن سعد : « انكم تتكلمون ويوشك الله أن يتكلم وتسكنوا ، ثم يشور من أعمالكم دخان نسوء منه الوجوه » واتفقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

« عباد الرحمن : لو غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو علمتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقاً ! لكاننا قوم لا يعقلون ! لكاننا قوم لا يؤمنون !

« تنادى الناريون القيامة : يا نار أحرقي ، يا نار اشتغي ، يا نار انفضجي ، يا نار كُلي ولا تقتلي ، يا نار شوّهي ! ويقول ميمون بن مهران : يا ابن آدم خفف عن ظهرك ، فإن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا وأكل مال هذا ، وستّم هذا .. كل هذا تحمله على ظهرك فتخفف ! » .

يقول الأوزاعي : « ليست ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله تعالى فيها إلا انقطعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا تمرّت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم وليلة مع ليلة ؟ » ..

فَكَّرَ فيما كنت تكابد من ألم الطاعة ، فإذا الألم سينهب ويبقى الثواب ، وانظر فيما استمتعت به من لذة المعصية ، فإذا هو سينهب ويبقى الحساب .. فستندم على كل لحظة لم تجعلها في طاعة .

إن المقاييس كلها تتبدل ساعة الموت ، وإذا كلُّ ما كنت أحبه وأنازعُ عليه ، قد سار عدماً ! وإذا أنا لم آخذ منه معي شيئاً ، بنيتُ داراً فما حملتُ معي منه حجراً ، واقتنيتُ مالاً فما كان لي منه إلا ما ظننتُ من قبل أني خسرتُه ، وهو ما أخرجته لله ، وعرفتُ لذائذَ الحياة كلها ، فما الذي بقي في يدي وأنا أموت من لذائذ الحياة كلها ؟

ونحن لا نعرف من الموت إلا ظاهره دون حقيقته ، نراه عدماً ، ونندب القريب والحبيب إن وضعناه في حفرة باردة ، وخلقناه وحيداً ، تأكله الدود ، وليس حبيبك الذي أودعته الحفرة ، ولكن جسده ، والجسد ثوب يخلع بالموت ، كما تخلع الحية ثوبها ، فهل يبكي أحدٌ على ثوب خلع ؟

وما الموت إلا انتقال إلى حياة أرحب وأوسع ، إلى النعيم الدائم أو الشقاء الطويل ، ولو كان الموت فناءً لكان نعمة .. فإذا كان الموت سفرة لا بد منها ، فالعاقل من تهيأ لها ، وأعد لها الزاد والراحلة ، وذكرها دائماً كيلا ينساها، ونظّر في كل شيء ، فإن كان مما يستطيع أن يجعله فيها حرصاً عليه ، وإن كان مجبراً على تركه وراءه زهيداً فيه وانصرف عنه . ونحن في هذا العصر نرى أن المجتمعات الاسلامية قد اقتصرت على المادية ، واستحوذت عليها الشهوات ، وأصبحت بالاغراق في الترف والامعان في الأمانى .

ونحن في حاجة ملحة إلى مواظب الآخرة التي تكشف الغطاء عن العيون وتمسّ القلوب .. وهذا الكتاب قد استخرجت فصوله من كتاب « في ظلال القرآن » المستوحى من القرآن الكريم ومن توجيهاته الأساسية ، وقد بَوَّبْتُهُ مستعيناً بهدي النبي ﷺ الذي كان الصورة الحية عن القرآن الكريم . وبهذا البيان القرآني والهدي النبوي أصبح العالم الآخر الذي وعدّه الله للناس بعد هذا العالم الحاضر ليس موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحرّكاً ، وبارزاً شاخصاً .

لقد عاش المساهون في ذلك العالم .. رأوا مشاهدته وتأثروا بها .. فلا بد لنا من استعراض مشاهد العالم الآخر حتى نؤمن به أنه ليس عالماً مستقبلاً بل واقعاً مشهوداً نقيم على أساسه كل تصوراتنا وكل أعمالنا ..

والله ولي التوفيق .

(١) وقد اعتمدت في تخريج الاحاديث الشريفة على جامع الاصول في احاديث الرسول ، وكتاب الترغيب والترهيب ، سائلاً الله التسديد والتصويب .